في تاريخ أدب الأطفال
ودور الثقافة الإسلامية فيه(*)

مقدمة:

كلنا يؤمن بأن أطفال اليوم هم رجال الغد، ومن أجل إعداد رجل الغد، فإنه علينا أن نعطي الكثير من الاهتمام والعناية لطفل اليوم، من أجل أن يكون مواطناً صالحاً يعرف ماله من حقوق وما عليه من واجبات. وإذا تم الاهتمام بالأطفال على المستوى المطلوب، فإن المجتمع بذلك يكون قد خطا خطوات طويلة من أجل صنع التقدم والحياة الحرة الكريمة.

ومن المجالات الجديرة بالاهتمام والعناية، مجال ثقافة الطفل، أو ما يقدم للطفل من مواد ثقافية مقروءة ومسموعة ومرئية، وهو ما يطلق عليه «أدب الأطفال» على الرغم من أن أدب الأطفال قد يعني الإنتاج الفكري الذي يوضح كيفية تقديم الثقافة للطفل، ويدخل في هذا علم النفس، والتربية، والتربية الفنية، واللغة وغيرها من فروع المعرفة الأخرى، حيث إنَّ ما يقدم للطفل يجب أن يراعي النواحي النفسية ومراحل النمو المختلفة للطفل وتقديم ما هو مناسب لكل مرحلة من هذه المراحل. وكتاب الطفل هو الفرع الذي يحوز اهتمام المختصّين في المكتبات ويحظى باهتمامهم أكثر من فروع الثقافة الأخرى للطفل مثل الأذاعة المسموعة والمرئية والمسرح.

وبما أن المتخصصين في علوم المكتبات والخدمات المكتبية يرون أن كتب الأطفال لها دور كبير في تنشئة الأطفال تنشئة سليمة، فإنهم يرون «أن اختيار الكتاب المناسب للطفل يحتاج إلى جهد كبير وفهم عميق لطبيعة ومرحلة الطفولة ذات النمو المستمر جسمياً وعقلياً وروحياً»[1]، حتى تكون الكتب التي تقدم للأطفال ذات متعة

(*) نشرت في مجلة تراث الشعب (ليبيا). س 3، ع 11، أكتوبر ـ ديسمبر 1983، ص 70 ـ 77.

(1) سهير أحمد عاشور. «كتب الأطفال» صحيفة المكتبة، مج 8، ع1، يناير 1976، ص 80.

لهم، ويمكن أن تستهويهم بمادتها العلمية وشكلها الجذاب الأنيق، وتحبب إليهم القراءة وتنمي عندهم الميل إلى الكتب.

وأدب الأطفال أدب قديم حديث، فقد كانت الأمهات والجدات يقصصن الأساطير والخرافات للأطفال خصوصاً قبل وقت النوم. وكانت هذه القصص والخرافات تشد من اهتمام الأطفال، وكثيراً ما يتخيل الطفل أنه ذلك البطل الجبار القوى الذي يستطيع بضربة واحدة أن يقتل مائة رجل، أو أن يقتلع شجرة ضخمة أو نخلة عملاقة، أو بضربة واحدة بإمكانه أن يدكّ جداراً عظيماً. وكثيراً ما كان الأطفال يطلبون من أماتهم أو جداتهم الاستمرار في سرد تلك الحكايات حينما تحاول الأمهات والجدات التوقف.

وعلى الرغم من أن معظم الحضارات والأمم القديمة «لم تهتم بتسجيل حياة الطفولة عندها أو آداب أطفالها لذاتها. فإن ما وصلنا من هذه أو تلك، وهو قليل نادر. إنما كان متصلاً بعمل من أعمال الكبار»[1] ولكن من بين تلك الحضارات من اهتم بمثل هذا الأدب. فالمصريون القدماء سجلوا حياة الأطفال وأدبهم في نقوش وصور على جدران قصورهم وعلى قبورهم، وكتبوها على أوراق البردي التي بقيت آلاف السنين، لتوضح لنا أن الأطفال هم الأطفال مهما اختلفت الأزمان[2].

وفي العصر الإسلامي نجد أن القرآن الكريم اعتمد القصص كإحدى الطرق والوسائل للهداية والعبرة والعظة والتفكير، فيقول: «فاقصص القصص لعلهم يتفكرون»[3] وكان من بين الذين يستمعون إلى أخبار الدين الجديد والقصص التي كان القرآن يقصها من أجل العبرة والموعظة الحسنة، الأطفال الذين كانوا يسمعونها في المنتديات ومضارب الخيام والمنازل. وكذلك كانت الأمهات المسلمات يحكين لأطفالهن قصصاً عن الرسول، صلى الله عليه وسلم، وعن الدين «الذي طلع كالفجر الصادق يبدد غشاوة الجهالة والوثنية، ويقصصن عليهم أنباء السابقين

(1) على الحديدي. الأدب وبناء الإنسان، طرابلس: منشورات الجامعة الليبية، 1973، ص 36.
(2) المصدر نفسه.
(3) سورة الأعراف، آية 176.

الأولين في الإسلام وما يلقونه من عنت المشركين وإرهاقهم، ويروين لهم بطولات الصبر وثبات العقيدة»[1] وكانت تلك القصص والحكايات تشوق الأطفال وتجتذبهم للإسهام في تلك البطولات الخالدة. «وتنطلق خيالاتهم تتصور الرسول الكريم بطلاً يحوِّل الظلام نوراً. ويبدل خوف الناس أمناً، ويقود العالم من الشر إلى الخير»[2]، ويصنع المعجزات ويهزم الطواغيت والجبابرة الذين طالما ظنوا بأنهم لا ينهزمون.

وكذلك ينبهر الأطفال المسلمون وهم يسمعون قصة الإسراء والمعراج، وكيف قطع الرسول الكريم كل تلك المسافة الشاسعة بين الأرض والسموات العلا في لحظات قصيرة. ويزداد الإعجاب والإكبار من طرف الأطفال الذين يسمعون هذه القصص. وتتسع هالة النور المحيطة بالبطل فتمتد في نظر الأطفال من الشرق إلى الغرب ومن الأرض إلى السماء، ويزدادون به إعجاباً وتقديساً[3].

وبعد انتقال الرسول، صلى الله عليه وسلم، إلى جوار ربه، أخذ الآباء والأمهات، وكذلك المعلمون، يقصون على الأطفال المسلمين، الذين لم يعاصروا الرسول، قصص حياته، وأخبار سيرته العطرة، ومعجزاته التي زوده بها الله، وغزواته ضد الكفار والمشركين، وأخلاقه وجهاده، وغيرها من القصص الأخرى عن أبطال المسلمين الأوائل من صحابة الرسول الذين أسهموا في نشر الإسلام وبناء دولة الإسلام القوية، حتى تكون هذه القصص قدوة يقتدي بها ذلك الجيل من أبناء المسلمين الذين حملوا راية الإسلام في الشرق والغرب.

وعلى الرغم من نشاط القَصَصَ الديني، وكثرة القصَص التي كانت تحكى للصغار في العصر الإسلامي الذي ازداد نشاطاً في عصر الأمويين، فإنه، وكما يقول الدكتور على الحديدي: إن «الذين دونوا التراث العربي في أواخر العصر الأموي وفي العصر العباسي. وجهوا كل جهودهم إلى (أدب الكبار، ولم يهتموا بتدوين (أدب الأطفال) مما كان يروى ويحكى لهم من قصص وحكايات، وتركوا

---

(1) علي الحديدي، ص 222.

(2) المصدر نفسه.

(3) المصدر نفسه.

المتأخرين من الباحثين يتخبطون في ظلمات الظن والاستنتاج والتخمين ولـم يسترع انتباه المدونين من (أدب لأطفال) إلا الأغنيات التي كان الكبار يرقصون بها الصغار»[1].

أدب الأطفال في الوطن العربي:

أما فيما يخص أدب الأطفال العرب في العصر الحديث، فإن أول من قدم كتاباً للأطفال العرب هو «رفاعة رافع الطهطاوي»، وذلك حينما رأى أن أطفال أوربا ينعمون بقراءة أنواع مختلفة من الكتب التي كتبت خصيصاً لهم، فقام بترجمة كتاب إنجليزي إلى اللغة العربية، وهو عبارة عن مجموعة من الحكايات، وكان اسمه عقلة الصباع[2]، وكان رفاعة بعد توليه زمام أمر التعليم في القطر العربي المصري «جاداً في أن يستعين في سياسته التعليمية بما يوضع أو يترجم من كتب حديثة.. ولم تمض سنوات حتى كان في أيدي التلاميذ كتب في الجغرافيا وأطالس، وكتب في الأخلاق، والحساب والهندسة، وكتب تدعى حكايات الأطفال[3]، وبعض الكتب الأخرى. وبعد وفاة المربي «رفاعة الطهطاوي» خيمت على أدب الأطفال العرب ظلمة حالكة لم تبدد إلاَّ بمجيء أمير الشعراء أحمد شوقي الذي هاله هو الآخر ـ أثناء دراسته في فرنسا ـ ما يزخر به أدب الأطفال الفرنسي من قصص وحكايات وأشعار كتبت للأطفال الفرنسيين.. وبعد رجوعه إلى مصر كتب العديد من الأغاني والقصص الشعرية على ألسنة الطيور والحيوانات، فكان بذلك «رائداً لأدب الأطفال في اللغة العربية، وأول من كتب للأحداث العرب أدباً يستمتعون به ويتذوقونه»[4]. ودعا أحمد شوقي الشعراء والأدباء العرب في ذلك الوقت للكتابة للأطفال، وخلق أدب أطفال يقرؤه الناشئة على غرار ما هو موجود في دول أوربا، خصوصاً فرنسا في

---

(1) المصدر نفسه، ص 226.

(2) محمد بن السيد فراج ـ الأطفال وقراءاتهم. الكويت: شركة الربيعان للنشر والتوزيع، 1979، ص 51.

(3) علي الحديدي، ص 241.

(4) المصدر نفسه، ص 244.

ذلك الحين، إلاَّ أن دعوته لم تجد من يصغي إليها، حيث كان شغل الأدباء والشعراء الكتابة للكبار، وبعضهم رأى أن الكتابة للصغار لا تعطيه المجد الأدبي والشهرة التي يطمح إليهما. وقد فترت همة شوقي عندما لم يتحمس الأدباء والكتاب لدعوته، وبعد فترة توقف هو نفسه عن كتابة الحكايات للأطفال[1].

وفي بداية هذا القرن جرت بعض المحاولات في الكتابة للأطفال. فقد كتب «علي فكري» في سنة 1903 كتاب مسامرات البنات، الذي قصد منه الكاتب التعليم والتهذيب، وكان يحتوي على مسامرات وحكايات وترجمة لبعض النساء الشهيرات من العرب وبعض النساء في أوربا. وفي سنة 1914 ظهرت ترجمة عربية لبعض القصص الإنجليزية، وقد ترجمها «أمين خيرت الغندور» وكانت للكاتب البريطاني «رايدر هاجرد»، تضمنت بعض الحكم والمواعظ التي نقلت عن بعض الأوربيين، وكان اسم الكتاب الذي احتواها هو «كنوز سليمان». وفي عام 1916 وضع «علي فكري» كتاباً آخر للبنين سماه (النصح المبين في محفوظات البنين). إلا أنه ومع كل هذه المحاولات، فإن أدب الأطفال في الأقطار العربية لم يقف على قدميه ويأخذ مكانته الفعلية إلا في بداية العشرينيات من هذا القرن حينما كتب «محمد الهراوي» عام 1922 (سمير الأطفال للبنين)، والحقه في عام 1923 بكتاب آخر هو (سمير الأطفال للبنات)، وكان كل منهما في ثلاثة أجزاء، وكانت عبارة عن منظومات قصصية للأطفال. وبعدها كتب مجموعة أخرى من قصص الأطفال ما بين عام 1924 و 1928 سماها (أغاني الأطفال)، وكانت في أربعة أجزاء، وهي قصائد شعرية سهلة بالصور. وفي عام 1931 كتب «الهراوي» قصائد نثرية على جانب كبير من الوضوح والسلاسة، ومن بينها (جحا والأطفال)، و(بائع الفطير)[2].

أما الرائد الفعلي والحقيقي لأدب الأطفال العربي في العصر الحديث فهو «كامل كيلاني» الذي يعتبر «بحث الأب الشرعي لأدب الأطفال في اللغة العربية.

---

(1) المصدر نفسه، ص 225.

(2) المصدر نفسه، ص 260.

وزعيم مدرسة الكاتبين للناشئة في الأقطار العربية كلها»[1] وكان كامل كيلاني حاساً لحاجة الأطفال العرب إلى أدب يجتذبهم ويحبب إليهم لغتهم وتراثهم وفقاً لسنوات عمرهم ونموهم العقلي. حتى يوقظ فيهم المواهب والاستعدادات، ويقوى ميولهم وطموحاتهم، ويزيدهم قرباً من القراءة والمثابرة عليها. فجمعت كتاباته للأطفال «بين التراث العربي والثقافة الغربية والشرقية. كما كتب في الدين والتاريخ والفولكلور، وترجم القصص العالمية؛ كقصص شكسبير، وكان يهدف من كتاباته من مختلف أنواع الأدب تنمية خيال الطفل وتفكيره.. وكتب كل ذلك بلغة سهلة بسيطة مفهومة للأطفال ترغيباً لهم وتقوية لميولهم[2]. وقد كتب كامل كيلاني أكثر من مائتي قصة ومسرحية للأطفال. وكانت أول قصة كتبها هي قصة السندباد البحري، التي كتبها عام 1927. ولم يتوقف كامل كيلاني عن الكتابة للأطفال حتى وافاه الأجل عام 1959. وظهرت عدة أعمال أخرى كتبت للأطفال باللغة العربية إما كتابة أو ترجمة. ففي سنة 1929 كتب «حامد القصبي» كتاباً للأطفال سماه «التربية بالقصص لمطالعات المدرسة والمنزل». وكان هذا الكتاب في ثلاثة أجزاء. وفي عام 1925 ظهرت مجموعة قصص بعنوان «أجمل وردة في العالم»، وقد ترجمها «بولس منذر عبد الملك» وآخرون، وهي ثماني قصص من قصص كاتب الأطفال الأوروبي الشهير «هانز كريستيان أندرسون» Hans Christian Andersen وفي عام 1928 ظهرت قصة «الأميرة والفتاة الفقيرة»، التي كتبها «نعمة طعيمة إبراهيم» وظهرت قصة «الشَّجاعة والإقدام»، «لتوفيق بكر» عام 1919م، ثم جاء بعد ذلك الكاتب والأديب «محمد سعيد العريان» الذي يعتبر من الرواد الذين أرسوا دعائم أدب الأطفال في الوطن العربي، ووصل بهذا الأدب إلى درجة رفيعة من الكمال الفني، جعلت منه مثلاً لكتاب الأطفال الذين جاءوا من بعده.

ففي سنة 1934 أصدر محمد سعيد العريان مجموعة القصص المدرسية بمشاركة «أمين دويدار» و«محمد زهران» وكانت تحتوي على قصص ذات مغزى

---

(1) المصدر نفسه، ص 263.

(2) محمدين السيد فراج، ص 52.

ديني واجتماعي وثقافي، صيغت في أسلوب جميل ممتع يناسب العمر العقلي واللغوي للأطفال. ثم أصدر بعدها سلسلة أخرى تحت اسم «كان يا ما كان»، وهي عبارة عن قصص وحكايات ذات أسلوب شائق. وقد أصدر العريان من هذه السلسلة خمس قصص بمساعدة «أمين دويدار» و«محمد زهران» أيضاً.

وقد أعطت الجهود التي بذلها محمد سعيد العريان لأدب الأطفال دفعاً قوياً، فكان أن توافرت أعداد كبيرة من كتب الأطفال في مكتبات المدارس وأصبحت في متناول الجميع، حتى أولئك الذين لم يكن بوسعهم شراؤها نتيجة لظروف المعيشة والحالة الاقتصادية. وقد أصبح محمد سعيد العريان بعد ذلك رئيساً لتحرير مجلة «السندباد» التي أصدرتها دار المعارف بمصر لمدة تسع سنوات متواليه. وبعد ذلك أصدر قصته «رحلات سندباد» في أربعة أجزاء. وكانت هذه القصة تنشر على حلقات في مجلة سندباد. وقد نالت هذه القصة جائزة الدولة التشجيعية لعام 1962[1].

وازداد الوعي بأهمية كتب الأطفال وأدبهم، فاهتمت دور النشر العربية بنشر كتب الأطفال، على الرغم من أن كتب الأطفال الجيدة المضمون والأسلوب كانت قليلة، حيث غلبت الناحية التجارية على النواحي العلمية والفنية على الكتب، وكانت كتب الأطفال تصدر عن بعض دور النشر العربية التي تصدر أنواعاً مختلفة من الكتب الأخرى العلمية والأدبية وغيرها، ولم يكن هناك دور نشر متخصصة في نشر كتب الأطفال إلاَّ في الآونة الأخيرة، حيث تم إنشاء عدد قليل من دور النشر المتخصصة في نشر كتب الأطفال من قصص وأشعار وحكايات.

ومن بين الأقطار العربية التي أخذت في الاهتمام بنشر كتب الأطفال، ليبيا، وتونس، والعراق، وسوريا، والبحرين، بالإضافة إلى مصر ولبنان، وكذلك صدرت في هذه الأقطار بعض مجلات الأطفال. ومهما بلغ عدد الكتب التي أصدرت خلال السنوات الماضية، فهي قليلة جداً إذا قورنت بنسبة عدد الأطفال العرب القادرين على القراءة الذين بلغ عددهم في عام 1970 وحده حوالي 32 مليون

---

(1) المصدر نفسه، ص 270.

طفل دون سن الخامسة عشرة، وهم في حاجة إلى ما لا يقل عن 1500 كتاب كل سنة باثنين وثلاثين مليون نسخة[1].

خاتمة:

إن أدب الأطفال يعتبر من الأدوات الهامة والأساسية في تنشئة الطفولة، التي تعتبر أهم الدعائم والركائز لمستقبل الوطن العربي، والتي يقوم عليها مستقبل المجتمع العربي وشخصيته التي نريد لها أن تكون قوية ومؤثرة. إن حاجتنا ماسة وشديدة إلى بناء أدب أطفال عربي يهتم بأطفالنا، ويبين لهم طريق المستقبل، ويجعل منهم جيل الحضارة العربية القادمة.

(1) هادي نعمان الهيتي، أدب الأطفال: فلسفته، فنونه، وسائطه. بغداد: وزارة الإعلام، 1977، ص 288.